إشكاليات كتابة تاريخ الهوية الفلسطينية

إن دراسة التاريخ المعاصر تكاد تكون مستحيلة إذا لم تأخذ بعين الإعتبار دور الأمم كوحدات سياسية في صياغة هذا التاريخ. فالأمة قد أمست، على الأقل منذ القرن التاسع عشر، جسداً مصاحباً يستحيل فصله عن التاريخ الحديث. بهذا المعنى فإن كل دراسة تاريخية تعنى بالحاضر هي غير مكتملة ما لم تأخذ دور الأمة والقومية في صنع الحدث التاريخي أو التأثير عليه.

فالكتابة التاريخية نفسها أمست جزءاً هاماً من مشروع الأمة ذاته، فهي التي تزود المشروع القومي بمشروعيته التاريخية. لا يعني ذلك أن التاريخ القومي هو بالضرورة التاريخ «الحقيقي» للأمة، بقدر ما يعني أن الأمم بحاجة إلى اختراع وتجبير وخلق تواريخها الخاصة، التي تظهرها كما لو أنها جسد تاريخي ذو جذور تعود لبداية التاريخ المكتوب، بدل أن تكون كيانات حديثة الولادة ضمن ظروف تاريخية محددة كثيراً ما تتسم بصدفيتها. فالأمة والدولة القومية ليست إلا تطوراً حديثاً يرتبط أساساً بالمرحلة الرأسمالية وبنشأة الطباعة السلعية كما يقول أندرسون.[1] وهي بذا جسد لم يكن معروفاً في المراحل التاريخية التي سبقت القرنين الماضيين على أحسن تقدير. هذا يعني أن دراسة تكوّن وتطور هوية قومية محددة ليست بالأمر الذي لا يتعدى البحث عن الجذور التاريخية للأمة، بقدر ما هي تمرين أكاديمي في «التيليولوجيا التاريخية». فهي عملية تبدأ من نهاية مفترضة مستندة لبحث ينتقي فقط الأحداث التاريخية التي ستقوده لهذه النهاية المفترضة للتاريخ. من هنا فإنه ليس من الغريب أننا نجد أمامنا عدداً من النصوص السردية المختلفة لتطور كل أمة. وبرغم اتفاق المؤرخين على النهاية فإنهم قلما يتفقون على ما سبقها. فكل سرد تاريخي للأمة يستند إلى ما اختاره المؤرخ كنقطة بداية وكأحداث يجب ادراجها في السياق. بالطبع لا يجوز الإفتراض أننا أمام مسألة تتعلق فقط باختيار واعٍ من جانب المؤرخ بقدر ما نحن أمام عملية تتشابك فيها المصالح مع الأيديولوجيا، مع بنية المعرفة والمخيلة التاريخية التي تؤثر في المؤرخ ذاته.

دراسة تاريخ الهوية القومية الفلسطينية تشكل مثالاً ساطعاً على تعدد السردية التاريخية نتيجة لتعدد المخيلات التاريخية التي تؤثر على كتاب هذا التاريخ. ونتيجة للخصوصية الفلسطينية، فإن النتائج المترتبة على مثل هذه التعددية السردية عظيمة. ذلك أن الفلسطينيين يشكلون جماعة وطنية ـ قومية كثيراً ما ينظر إلى وجودها بعين الريبة والتشكيك.(٢) مثل هذا التشكيك ليس فقط على علاقة بالنفي الصهيوني ـ أو حتى بالتجاهل العام ـ لوجود الفلسطينيين كجماعة قومية، بل أيضاً نتيجة تاريخ تناقضات الخطاب الفلسطيني نفسه والتناقضات التي أنتجته. فهذا الخطاب ذاته برز عبر تطورات تاريخية، لم تكن تدفع، غالباً، باتجاه بروزه كتيار قومي خاص. فتاريخ بروز الخطاب الفلسطيني يشير الى أن تحديات وتناقضات مختلفة ومتناقضة في آن واحد أدت إلى خلقه، وإلى تشكيل حالة من عدم الوضوح الفلسطيني حول طبيعة هذا الخطاب وماهيته. وعلى سبيل المثال لا الحصر لنأخذ الخطاب الفلسطيني في الستينات، فهو، كما تشير الأدلة النصية، كان أساساً خطاباً عروبي النزعة، مستنداً إلى إيمانه بوجود أمة عربية واحدة، لكننا نجد أن هذا الخطاب ذاته وفي سياق تصديه للخطاب الصهيوني المرتكز على فكرة عدم وجود فلسطينيين بل عرب هم جزء من بقية العرب الذين عليهم استيعابهم، كان عليه الدفاع عن خصوصيته عبر التأكيد على رفض التشابهية العربية التي يطرحها الخطاب الصهيوني، والتي لا تختلف جذرياً في جوهرها عن الموقف العروبي السابق ذكره. على كل الأحوال فنحن الآن نعيش مرحلة تجاوز فيها الخطاب الفلسطيني ـ ومعه الخطابات العربية الأخرى ـ مأزق الستينات. فخلافاً لأوضاع الستينات تشير الأوضاع السياسية الراهنة إلى فشل الخطاب القومي العربي لصالح «الدولة القطرية العربية». فقد أصبحت الهويات العربية المختلفة أمراً مقبولاً حتى لدى أشد دعاة القومية العربية حماسة. كذلك الأمر على المستوى الفلسطيني، فنحن الآن نعيش مرحلة سياسية فيها قبول عام لفكرة كون الفلسطينيين شعباً. فالخصوصية الفلسطينية اليوم هي تقريباً محط إجماع واعتراف دولي، وحتى إسرائيلي. برغم ذلك فإن هذه التطورات هي سياسية بالأساس وترتبط بتطورات سياسية محددة. فالإقرار بوجود هوية جماعية فلسطينية لا يعني الاتفاق على كيفية بروزها أو على تاريخها أو تطورها أو فحواها أو حدود شموليتها.

في هذا السياق فإن دراسة وتحليل كتابة تاريخ الهوية الفلسطينية هي اليوم مسألة ذات أهمية قصوى بالنسبة إلى الفلسطينيين أنفسهم، ليس لأنها ضرورية في العملية التفاوضية، بل لأنها ترتبط بكيفية رؤيتهم لمستقبلهم ولذاتهم ولحدودهم كجماعة سياسية وطنية عبر قراءتهم لماضيهم ورؤيتهم له. فالأفكار والمخيلات التاريخية ليست مجرد أوهام، كما أنها ليست بالضرورة صوراً عن الواقع، بل هي أساساً طرق معرفية لفهم الواقع والتعامل معه. فالفكرة عندما تصبح هوية ـ فردية كانت أم جماعية ـ تصبح النظارة التي يرى الفرد العالم من خلالها. وهي بذلك، كما أشار علي حرب، «تمسي حاجزاً يتمترسُ وراءه صاحبها أو المؤمن بها [...] على نحو أصولي، أو شمولي، أو عنصري فاشي».(٣)

والمتمعن بما كتبه دارسو تاريخ فلسطين يجد أن مسألة الهوية الوطنية ـ القومية لم تدرس بشكل كاف من قبل غالبية الباحثين. في الوقت ذاته، فإن الدراسات القليلة التي تشير إلى هذا الموضوع تدل ـ في أحسن الأحوال ـ على خلاف الباحثين حول تاريخ ونشأة الفلسطينيين كشعب، كما أنها أيضاً تدل

على عدم وضوح وضبابية بحثية ـ في أسوأ الأحوال. فهناك العديد من الاتجاهات المختلفة في النظر إلى الهوية الفلسطينية التي تتراوح ما بين النفي التام لوجودها [٤] أو الإصرار على وجود تاريخي طويل يعود الى جذور كنعانية لهذه الهوية. [٥] ما بين طرفي النقيض هذين نجد مؤرخين إسرائيليين يرون أن الهوية الفلسطينية ردة فعل على الوجود الصهيوني، وذات نشأة حديثة تعود إلى أعوام الستينات. المؤرخ الإسرائيلي مئير بئيل Meir Pa'el يكثر من الإشارة إلى «أن الحركة الصهيونية هي من أنجح الحركات القومية في التاريخ، فهي قد بدأت بغرض تأسيس جماعة قومية وانتهت بتأسيس جماعتين.[٦] في مقابل ذلك نجد أن بعض المفكرين الفلسطينيين يرون في نشأة الهوية الفلسطينية عملية تاريخية حديثة تعود إلى مرحلة الانتداب البريطاني والهجرة الصهيونية إلى فلسطين. وفي كلا الحالتين يستند الباحثون إلى دراسة تطور المؤسسة السياسية أو الحركة الوطنية الفلسطينية، دون الأخذ بعين الإعتبار الكيفية التي رأى فيها الفلسطينيون ذاتهم خلال كل هذه المراحل المختلفة من بروزهم كشعب مستقل عن جيرانه من الشعوب الأخرى.

نقطة انطلاق هذه الملاحظات هي القناعة التامة بأن الأمم ليست كيانات أزلية لا نهائية كما يصورها المفكرون القوميون، بل إن الأمة أو الشعب، كجماعة هي أساساً جسد سياسي متخيل يتم انتاجها في ظروف زمكانية محددة. عملية إنتاج الأمة ـ المخيلة هذه ليست مسألة اقتصادية سياسية فقط، بل هي إلى حد كبير عملية ثقافية بلاغية Cultural - Rhetorical. وبهذا المعنى فإن كتابة تاريخها لا يجب أن تستند فقط إلى التطورات السياسية التي تنتج الأمة ـ الشعب، بل إلى الخطاب الذي يتم من خلاله إنتاج وصياغة الأمة، وإلى التاريخ الذي يتم توظيفه في عملية الإنتاج هذه. [٧] بهذا المعنى فإن دراسة بروز الفلسطينيين كشعب، برأيي، يجب النظر إليها ليس فقط من خلال تطور مؤسساتهم السياسية، بل عبر دراسة نمط الخطاب والمخيلة الفلسطينية والمؤثرات التاريخية التي لعبت دوراً في صياغة الوعي الفلسطيني والولاء الفلسطيني للجماعة، والكيفية التي تمت فيها تحديد حدود هذه الجماعة. أنا أدرك أن تحديد النقاش بالوعي والخطاب له أبعاد خطيرة، ذلك لأن العديدين يرون في وعي الفلسطينيين لفلسطينيتهم باعتباره وعياً زائفاً False Consciousness. وهذه هي إحدى الإشكاليات السياسية التي تعترض، أحياناً، طريق دراسة تطور وبروز الهوية الفلسطينية تاريخياً. لكنها مسألة لا يجوز إهمالها، في ما لو كنا جدين ـ بالمعنى الأكاديمي ـ في نيتنا لدراسة الهوية تاريخياً. وهي أيضاً نقطة هامة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أهمية وأثر الوعي في الواقع، والواقع في الوعي. فالوعي الذاتي لا يرتبط فقط بكيفية تخيل الذات، بل أيضاً بكيفية تصوّر وتصوير الآخرين لنا وكيفية تعاملنا معهم وتعاملهم معنا.

أحد الإشكاليات الرئيسية التي تواجه دارسي الهوية، برأيي، هي ما يشير اليه محقاً رشيد الخالدي عندما يؤكد بأن بروز هوية فلسطينية خاصة على المستوى السياسي، هي مسألة تتداخل مع ـ وإن كانت لا تعتمد كلياً على ـ قضية استثناء ورفض الفلسطينيين وتحويلهم إلى الآخر لجماعات وطنية ـ قومية أخرى، ترى بذاتها أنها مختلفة عنهم، وتحمل عن ذاتها تصورات تاريخية ونصوصاً تاريخية تفسر تطورها التاريخي. وهذا بالضبط ما يجعل دراسة الهوية الفلسطينية استناداً إلى نصوصها الخاصة مسألة صعبة المنال. مرجع ذلك أن النص الفلسطيني نفسه لم يتكون بشكل مستقل، لا بل إنه

نص يضطر إلى الاعتماد على والاستعانة بنصوص تاريخية تخص شعوب المنطقة الأخرى. هذه النصوص غالباً ما نجد أنها تستند إلى ذات القضايا التاريخية التي يستند - أو يحاول أن يستند - إليها النص التاريخي الفلسطيني ورؤية الفلسطينيين لذاتهم ولتاريخهم. والأمثلة على هذا كثيرة. فعلى سبيل المثال لا الحصر هل يمكن لأحد الإدعاء بأن مرحلة النهضة العربية في نهاية القرن التاسع عشر، أو مرحلة بروز الفكر القومي العربي على المستوى السياسي خلال الحرب العالمية الأولى، هي فقط ملك للتاريخ اللبناني أو الفلسطيني دون غيره؟ وهل يمكن القول بأن التاريخ اليهودي في فلسطين هو أمر مرتبط فقط بالتاريخ الإسرائيلي وليس جزءاً من تاريخ الفلسطينيين أنفسهم؟ أليست هذه قضايا تاريخية نجد صداها في العديد من النصوص التاريخية لجماعات عدة في منطقتنا؟. إن هذا التشابك غالباً، والتعارض في الكثير من الأحيان، ما بين النص التاريخي الفلسطيني والنصوص التاريخية الأخرى، هو أحد الإشكاليات الرئيسية التي تواجه دارسي التاريخ الفلسطيني والهوية الفلسطينية اليوم. هذه الهوية التي غالباً ما يفسر تطورها استناداً إلى المعاني المنتجة في النصوص الأخرى، والتي غالباً ما تتجاهل الفلسطيني ذاته. بهذا المعنى فإن المؤرخ الفلسطيني غالباً ما يجد أن عليه مسؤولية استرجاع تلك الأجزاء من الذاكرة الفلسطينية التي تم استعمارها من قبل الخطابات التاريخية المنافسة. وتحديد التاريخ الحديث للفلسطينيين، وكيفية فصله عن مرادفه الإسرائيلي وعن الإطار الأوسع للتاريخ العربي، أو لتاريخ الأقطار المجاورة لفلسطين، هي إشكالية كبرى تواجه الدارسين عموماً. وإذا كان عدم استقلال التاريخ الفلسطيني يشكل أزمة للدارسين، فإن الحاجة المستمرة إلى تحاشي محاولات خلق نص فلسطيني مستقل تماماً تشكل أزمة على نفس المستوى. ذلك لأن تمايز هوية الفلسطينيين الوطنية عن هويات جيرانهم المختلفة لا يعني أن فهم هويتهم وتمايزها ممكن خارج إطار سلسلة من تواريخ، هي ليست تاريخهم بالمعنى المحض للكلمة. فخصوصية النكبة الفلسطينية عام ١٩٤٨ مثلاً مسألة تربط النص الفلسطيني بمرادفه الإسرائيلي سواء رضي الطرفان بذلك أم لم يرضيا. وعليه فأزمة فهم الهوية الفلسطينية إذاً تكمن في ضرورة فهم صعوبة أن يكون الفلسطينيون جزءاً من أية هوية أخرى من هويات الشعوب الوطنية المجاورة.

قد تكون مثل هذه الأزمة - المقصود عدم إدراك ترابط التاريخ الفلسطيني مع التواريخ المنافسة - هي ما أدى بالبعض إلى اعتبار الهوية الفلسطينية هوية حديثة الولادة وذات جذور تعود فقط إلى بداية كتابة تاريخ وطني فلسطيني خاص، وإلى بداية النشاط السياسي الوطني الحديث منذ الستينات. مثل هذه الرؤية تشير إلى إشكالية أخرى تواجه الدارسين، وكثيراً ما تقودهم إلى تبسيط الأمور عبر البحث فقط في التاريخ السياسي للمنطقة والنظر إلى تطور الهوية الفلسطينية من خلاله. وهذا برأيي يعطي إنطباعات مشوهة عن السرد التاريخي الفلسطيني وعن الأصول المعقدة التشعب للهوية الفلسطينية. فاعتماد الآثار - الهامة بلا شك - للتيارات الفكرية المهيمنة في الشرق الأوسط، مثل القومية العربية أو الإسلامية، أو النظر فقط إلى فرض التقسيمات الغربية على المنطقة، أو إلى أثر الحركة الصهيونية على مسألة تطور وشكل بروز الهوية الفلسطينية، قد يشير لقضايا هامة لكنه لا يستغرق الموضوع. فكل العوامل المذكورة آنفاً ذات أثر هام في عملية إنتاج الهوية الفلسطينية، لكنها لا تفسر مسألة الأدلة

والإشارات العديدة التي تقترح على الباحث بأن جزءاً من مثقفي المدن في فلسطين ـ أو المشرق العربي عموماً ـ قد بدأوا بتخيل فلسطين كوحدة سياسية متميزة، منذ فترات تسبق التقسيم الإستعماري والإستيطان اليهودي المكثف بسنوات، وإن لم يكن مثل هذا التخيل مصحوباً بوعي قومي فلسطيني خاص. فالكاتب نجيب عازوري طرح في عام ١٩٠٨ فكرة توسيع سنجق القدس ليشمل فلسطين الشمالية معللاً ذلك بأنه ضروري لتطور أرض فلسطين. [٨] لا يتطابق مثل هذا التصور لحدود فلسطين مع حدودها الإنتدابية لاحقاً فحسب، بل أيضاً مع تلك الحدود التي رسمها المؤتمر العربي الفلسطيني الأول المنعقد في القدس في ٣ شباط ١٩١٩. ففي برقية الإحتجاج التي أرسلها المؤتمر إلى مؤتمر السلم العام كتب المؤتمرون أنهم يمثلون «جميع سكان فلسطين المؤلفة من مناطق القدس ونابلس وعكا العربية من مسلمين ومسيحيين». [٩] كذلك فإن مذكرة الاحتجاج المرسلة من الجمعية الإسلامية المسيحية في يافا إلى الجنرال اللنبي في عام ١٩١٨ تتحدث باسم «العربي الفلسطيني». [١٠]

إن مجرد بروز فكرة أرض فلسطين ذات حدود مُعرّفة وشبيهة بتلك التي اعتمدها الإنتداب البريطاني لاحقاً، يدل على أن فكرة تمايز فلسطين عما يجاورها كانت متداولة في بعض الأوساط. هذه الفكرة مقبولة من قبل بعض المؤرخين الذين يعتبرون أن التخيل الفلسطيني لحدود الجماعة القومية هو نتاج لاحق لأوضاع برزت في القرن التاسع عشر، لكنهم لا يتفقون على التفاصيل. فهناك من يقول ـ رشيد الخالدي على سبيل المثال ـ بأن موقع مدينة القدس المركزي في المخيلة الشعبية للسكان المسلمين والمسيحيين واليهود على حد سواء، قد جعل منها رمزاً لكل الأماكن الأخرى في فلسطين، وحول زيارتها إلى جزء هام من التعريف الديني لسكان فلسطين. أصحاب هذا الموقف غالباً ما يشيرون أيضاً لأهمية موقع القدس الإداري في حياة سكان المنطقة ابتداءً من القرن الماضي وحتى اليوم. فالقدس كانت العاصمة الإدارية والسياسية لكل المناطق القريبة وتحديداً في مرحلة ما بعد عام ١٨٧٤، حين أصبحت عاصمة لسنجق مستقل يحمل اسمها ويرسل مندوبين عنه إلى البرلمان العثماني. وفي المرحلة اللاحقة لعبت دوراً هاماً كمركز ثقافي وفكري وصحافي للعديد من مدن فلسطين. في الجانب الآخر، نجد أن هناك مؤرخين يرون بأن تكوُّن اقتصاديات وعلاقات تجارية خاصة بالمنطقة مصحوباً ببروز مراكز تجارية مدينية هامة، تجذب القرى والبلدان المحيطة نحوها، هو العامل الرئيسي الذي مهد لتطور وعي سياسي بخصوصية فلسطينية. ضمن هؤلاء نجد أن بشارة دوماني يصر على أن نابلس قد كانت المركز التجاري الهام في القرن التاسع عشر، وصاحبة العلاقة الرئيسية بالتجارة الداخلية المرتبطة بالمدن السورية المختلفة وتحديداً دمشق. برأي دوماني فإن هذا ما جعل منطقة جبل نابلس المركز الحقيقي لفلسطين. [١١] الكسندر شولش في المقابل يعطينا تصوراً مختلفاً عن دوماني فهو يزودنا بالاحصائيات التي تشير الى أن مرفأ يافا كان نافذة فلسطين على العالم، فمنه صدّرت فلسطين إلى أوروبا واستوردت منها بضائعها المختلفة، مقترحاً بذلك دوراً مركزياً هاماً ليافا في بلورة معنى مستقل لفلسطين. [١٢] في المقابل هناك من يشير لأهمية الوعي الأوروبي للمنطقة عموماً ـ ولفلسطين كأرض مقدسة خصوصاً ـ كما عبرت عنها كتب الرحالة والمبشرين وعلماء الآثار والدين الأوروبيين في القرن التاسع عشر، في تبلور بدايات ادراك محلي بخصوصية فلسطين ووحدتها الجغرافية، وإن كانت حدودها لم تحدد بشكل واضح ودقيق. [١٣]

كل هذه المواقف التاريخية لا تقترح بالضرورة بأن وعياً فلسطينياً قد كان سائداً لدى عموم سكان فلسطين، بقدر ما تشير إلى مقدمات مادية لما آلت إليه الأمور في النهاية. بل إن هناك شبه إجماع على أن وعي السكان لم يكن دوماً إقليمي النزعة بقدر ما كان متعدد الإنتماءات والولاءات. فالهوية العثمانية والعربية والهويات القبلية والدينية المختلفة تعايشت سوية لدى أعيان المدن وسكان الأرياف ـ الذين غالباً ما حملوا هويات محلية أساساً ـ في أواخر العهد العثماني.(١٤) إلا أن مثل هذه التعددية لم تعكس حالة تناقض بالضرورة، فالولاء للعثمانيين لم يعن عدم الإفتخار بالتراث العربي أو عدم الدفاع عن فلسطين في وجه الأطماع الأجنبية. تعايش الولاءات هذا سيبقى ملازماً للخطاب الفلسطيني، وسيصبح لاحقاً جزءاً من سمات الهوية الفلسطينية. وهنا ربما يكون مكمن الأزمة الرئيسي لدى البحاثة الفلسطينيين. ذلك أن تاريخ الوعي الفلسطيني للذات لم يتميز بكونه متصاعداً زمنياً ـ Chronological ـ بقدر ما أنه امتاز بالمراوحة ما بين عدد من الإنتماءات والولاءات التاريخية. فأحياناً يجد الباحث في ذات الحدث دلالة على خصوصية فلسطينية وفي الوقت ذاته إصراراً على انتماء قومي أوسع من حدود فلسطين. هذه التعددية جلية في الفترة الإنتدابية كما هي جلية في فترة الخمسينات والستينات. فعلى سبيل المثال نجد أن المؤتمر الذي عقد في القدس عام ١٩١٩ يسمي ذاته «المؤتمر العربي الفلسطيني» ونجد أن المذكرة المرسلة من المؤتمر تشير الى ضرورة استقلال فلسطين والحفاظ على وحدتها، مؤكدة، في الوقت ذاته على أنها ـ أي فلسطين ـ جزء من أجزاء سوريا العربية.(١٥) والأمر كذلك في الخمسينات والستينات، فإذا ما نظرنا لبرنامج إحدى الحركات الفلسطينية السياسية ـ حركة القوميين العرب ـ وقارناه بعضويتها وطبيعة نشاطها، فسنجد أن النشاط الفلسطيني المعني أساساً بتحرير فلسطين من الحركة الصهيونية قد عبر عن ذاته بلغة القومية العربية.(١٦)

أخذت الهجرة اليهودية إلى فلسطين في لعب الدور الأكبر ـ إلى جانب التقسيم الاستعماري للمنطقة المستند إلى اتفاقية سايكس ـ بيكو ـ في تحولات الخطاب القومي الفلسطيني، الذي بدأ يأخذ بالنتيجة منحىً جديداً وبدأت تظهر له سمات جديدة. فنظراً لطبيعة الإستيطان اليهودي الذي كان يهدف بالأساس إلى بناء مستعمرات زراعية، فإن التصادم الفلسطيني مع المشروع الصهيوني ابتدأ في الأرياف وليس في المدن. هذا ما أنتج أحد أهم مكونات الهوية الفلسطينية لاحقاً وأحد إشكالياتها بذات الوقت. فالهوية التي بدأت معالمها في التشكل آنذاك ستحمل سمات الحركة الفلاحية أساساً، على الرغم من ولائها السياسي والديني للقدس ـ أي المدينة. الميزة الفلاحية هذه ستبقى جزءاً أساسياً من تمثيل الفلسطينيين لذاتهم عبر تبني رموز ريفية فلاحية لاحقاً ـ مثل الدبكة والملابس الفلاحية والكوفية. في الوقت ذاته، فإن تغيب المدينة عن لعب الدور الأكبر في صياغة الوعي المحلي ستكون له أبعاد ليست بسيطة على مستوى عدم تعميم الوعي وبقائه منافساً لعدد آخر من التصورات القومية. لكن بالرغم من هذا، ففي مرحلة الإنتداب البريطاني فإن الأسبقية الفلاحية في الإحساس بالتمايز والخصوصية وجدت إلى درجة محددة تعبيراتها السياسية ليس في الريف بل في المدينة، عبر المقالات المختلفة التي قد بدأت بالظهور في الصحف المحلية، وفي الخطاب السياسي والحزب الصاعد. فالصحف الفلسطينية المختلفة ـ الكرمل، فلسطين، المنادي ـ بدون استثناء شنت الحملة تلو الأخرى على الحركة الصهيونية ومشروعها في

فلسطين مطالبة ببقاء فلسطين لأهلها واستقلالها السياسي. فهذا نجيب نصار - أهم الصحافيين الفلسطينيين وصاحب جريدة الكرمل الحيفاوية - يدعو في عام ١٩١٤ عرب بلاد الشام لمساندة أهل فلسطين واصفاً إياهم بأنهم «الفلسطينيون».[١٧] نص نصار يشير إلى ادراك لحدود الجماعة الفلسطينية آنذاك، كما أنه يشير إلى وعي لتمايز هذه الجماعة عن الجماعة الأخرى المجاورة التي هي بقية سكان سوريا الطبيعية. هذا الوعي نجده أكثر تجذراً في مرحلة ما بعد وعد بلفور عام ١٩١٧، وخلال مرحلة الانتداب البريطاني عموماً، بدأ يأخذ الطابع السياسي. فالحزب الوطني العربي مثلاً يعلن في بيانه التأسيسي عام ١٩٢٣ بأن هدفه هو «الاحتفاظ بفلسطين لأهلها.. وإنشاء حكومة دستورية فيها».[١٨] تطور الأحداث في بقية الفترة البريطانية سيزيد الخطاب الفلسطيني حدة حول خصوصية فلسطين، وإن كان التأكيد على عروبتها جزءاً أساسياً من هذا الخطاب. إن التمايز الفلسطيني إذاً، برغم ارتباطه بظروف تاريخية تسبق الاستيطان اليهودي المكثف، لم يُصغ كوعي، ولم يبدأ بالتشكل إلا عبر العلاقة مع الإستيطان أساساً. هذه العلاقة التي تمزج ما بين الرفض الفلاحي للإستيطان والصياغة السياسية لهذا الرفض، عبر مؤسسات مدينية هي ما يمثل نقطة البداية العملية لرؤية الفلسطينيين لذاتهم كشعب. فبروز المشروع الصهيوني إلى العلن، والدعم البريطاني له عبر وعد بلفور، سارع من وتيرة تطور الشخصية السياسية الفلسطينية المميزة. هذه الشخصية بدأت بالتعبير عن ذاتها عبر جمعيات ومنظمات، سواء أطلقت على ذاتها صفة العربية، السورية، الإسلامية أو المسيحية، هدفها الدفاع عن فلسطين في وجه الخطر الصهيوني. ومع بداية عقد المؤتمرات الفلسطينية المختلفة كرد على الأطماع الصهيونية، وبدء المطالبة بوضوح بحق تقرير المصير لفلسطين، يكون تخيل الجماعة الفلسطينية قد بدأ يأخذ منحىً عملياً سيزداد تطوراً، وسيأخذ طابعاً أكثر رسمية في مرحلة ما بعد عام ١٩٢٢ بعد تثبيت الإنتداب رسمياً ومعه تثبيت حدود فلسطين السياسية. وسيتطور لاحقاً ليصبح تخيلاً مشتركاً تشارك فيه غالبية سكان فلسطين الإنتدابية حتى عام ١٩٤٨.

إلا أن هذا التطور لم يتمكن من الإستمرار إلى حدّ خلق دولته الوطنية كما هو الحال عند جيران فلسطين العرب. لا بل انه قد مرّ بمرحلة انقطاع حاد نتجت عن أحداث ١٩٤٨ التي أسماها الفلسطينيون بالنكبة. فالنكبة - وهي بدون شك الحدث الفاجع على عدد من المستويات، سواء كانت العائلية، الشخصية أو الوطنية - أدت إلى مسألتين هامتين: الأولى هي تفكك الإطار الإجتماعي لجزء هام من سكان فلسطين، وتحولهم إلى لاجئين؛ والثانية اختفاء المراكز المدنية لحياة الفلسطينيين الباقين في فلسطين وتحولهم من سكان مدن إلى جماعات تعيش على هامش المدن. هذان الحدثان شكّلا محطة انتقال نوعية في طبيعة واستمرارية الخطاب الفلسطيني. فبينما شكل الحدث الأول محفزاً هاماً لبروز الفلسطينيين كجماعة متميزة عبر تجربة عامة خاصة بهم هي النكبة والاقتلاع، فإن الثاني شكل نهاية لتطور المخيلة الفلسطينية الجماعية التي كانت صياغتها تتم في المدن. المسألتان مرتبطتان جوهرياً، لكن الأولى هي ما ساعد على بروز النمط الجديد من الإنتماء الفلسطيني، وهي بذلك بالغة الأهمية. فاختفاء الإنتماءات المحلية عبر تجربة الإقتلاع سارع في تثبيت خصوصية فلسطينية يمكن القول بأنها قومية. فكما يقول هومي بابا (Homi K. Bhabha) «الأمة تأتي لتملأ الفراغ الناتج عن اقتلاع الجماعات القبلية والحمائلية

واختفاء الولاء المحلي». فالأمة بحسب تعبيره «تُحوِّل معنى البيت والإنتماء، فهي تخلق حالة من الولاء المحلي الجديد، وتستبدل العائلة وتحل مكان القرية». هذه المحلية الجديدة هي حالة ثقافية أساساً أكثر ارتباطاً بالزمن من التاريخ. فهي تمثل نوعاً من الحياة أو نمطاً من المعيشة ورؤية الذات يمكن أن يكون أكثر تطوراً من التجمع، وأكثر رمزية من المجتمع، وأكبر معنى من البلاد، وأكثر شاعرية من الدولة. هذه الحالة الثقافية برغم جوهرها الأيديولوجي تبدو أكثر أسطورية من أية ايديولوجية أخرى. وهذه النزعة المحلية الجديدة تتيح المجال للتعددية بشكل غير ممكن في أي حزب وتجعل من موضوعها المواطن بدون أن تجعل منه مركزها.(١٩) القومية تزودنا بمحلية أكثر جماعية من أي موضوع آخر. جميع هذه الصفات معاً وربطها بالزمن لا يعني نفي تاريخيتها. فلكل صفة تاريخها الخاص بها. لكن الهدف العام هنا هو النظر إلى الأمة أو الشعب من خلال منظار سردي وليس اجتماعي.

إن اقتلاع الفلسطينيين بهذا المعنى قد ثبَّت لديهم حالة من الخصوصية، وخلق حالة من المحلية الجديدة. ولهذا فإن النكبة تشكل، ضمن إطار الخطاب الجماعي الفلسطيني، قفزة بلاغية أكثر منها بداية أو نهاية بحد ذاتها. فالهوية التي بدت واضحة المعالم قبل عام ١٩٤٨، وكان يتم صقلها والتعبير عنها عبر المثقفين من أعيان المدن، انتهت مع انتهاء المدن. فاقتلاع ما يزيد على الأربعمائة تجمع سكاني فلسطيني أدى إلى فقدان الصبغة المحلية القديمة واستبدالها بنوع جديد من الإنتماء هو الإنتماء إلى اللجوء كتجربة فلسطينية خاصة ومتميزة. لكن من المهم ملاحظة أن هذه التجربة والنقلة الخطابية التي صاحبتها لم توثر بنفس الطريقة على كل عرب فلسطين آنذاك. فهي قد أبقت على الفلسطيني باعتباره آخر، لكن بالنسبة إلى جماعات جديدة هذه المرة، وهي الشعوب العربية المجاورة. وهذا الشعور عُمق عبر استثناء اللاجئ من كل الهويات الأخرى التي كانت تتشكل من حوله. هذا الإستثناء لم يشمل سكان شرقي فلسطين ـ عدا اللاجئين منهم ـ بذات الطريقة. فالهوية الفلسطينية ظلت «أضعف ما يكون في الأردن والضفة الغربية، حيث تأخرت إلى ما بعد حلول الحكم الإسرائيلي محل الحكم الأردني».(٢٠) وبهذا فإن نمط الهوية الجديدة قد أخذ وقتاً أطول ليتطور في الضفة الغربية، وجاء أساساً إثر أوضاع مختلفة منها النشاط السياسي الفلسطيني القادم من الخارج، إضافة إلى سياسات الاحتلال منذ عام ١٩٦٧، والتي أفرزت ابتعاداً في المسافة الاجتماعية ـ الاقتصادية عن الأردن. بمعنى آخر فإن تطور الوعي الذاتي الفلسطيني في الضفة الغربية هو نتاج لاحق ـ قياساً بالشتات ـ لأحداث وتطورات خاصة لم يشترك فيها سكان المخيمات في الخارج. موسى البديري يشير إلى ذلك بوضوح عندما يقول:

«إن أكثر ما يلفت النظر في تجربة نشأتي في القدس «الأردنية» في الخمسينات هو غياب فلسطين وكل شيء فلسطيني من عالمي، كطفل وكبالغ. [...] خلال رحلتي اليومية للمدرسة كنت أسير بمحاذاة الحائط الذي بناه الجيش الأردني لحماية الناس من رصاص القناص الإسرائيلي، كما قد ادعوا [...]. القدس الشرقية والضفة الغربية كما يوحي اسمها لم تكن فلسطين كما كانت سابقاً بل كانت الأردن: «فلسطين» كانت هناك ما وراء الحائط الذي كان يبتدئ عند باب العامود ويمتد حتى الشيخ جراح.»(٢١)

ربما لم يصور البديري شعور كل سكان شرقي فلسطين آنذاك بشكل عام، لكن ما يشير إليه بلا شك يتعدى كونه مجرد انطباعات شخصية بدلالة أن سكان «الضفة الغربية» قد ميزوا بالفعل ما بين المواطن

واللاجئ منذ بداية اللجوء إلى مناطقهم. وهذا أمر يشير إلى أن طبيعة الهوية الجماعية الفلسطينية التي برزت آنذاك وسيطرت على الخطاب الفلسطيني المعاصر قد استندت أساساً إلى تجربة المخيم. الأزمة السياسية الحالية والمتمثلة في بروز إطار قانوني يحدد من هو الفلسطيني ـ مرتبط باتفاقية أوسلو للسلام ـ عبر مركزية تأخذ مواطني الضفة والقطاع كموضوعها الرئيسي، تنبئ بإشكاليات بحثية جديدة حول الهوية الفلسطينية. فالهوية الفلسطينية الآن معرفة قانونياً بطريقة لا يسعنا إلا أن نسميها استعماراً للخطاب الفلسطيني التاريخي. فاختزال الفلسطيني وتحويله إلى مجموعة محلية واحدة فقط يجرد أولئك الذين شكلوا أو عرفوا ماهية ومعنى التجربة الفلسطينية من فلسطينيتهم ويعيدهم مرة أخرى إلى كونهم لاجئين. بهذا المعنى فهو يشير إلى أن مَنْ عايش النكبة هو الآن بجدية، أمام نكبة من نوع جديد تتمثل بإمكانية سقوط هذه المحلية التي هي هويته الفلسطينية، والتي تطورت استناداً إلى تجربته الخاصة في الشتات في مرحلة ما بعد النكبة.

عصام نصار
رام الله

الهوامش:

(1) Benedict Anderson. Imagined Communities: Reflections on the Origin and Spread of Nationalism (London: Verso, 1991).

(٢) ارتأيت أن مصطلح وطنية ـ قومية أفضل ما يمكن استعماله، نظراً لأن مصطلح قومية يحمل دلالات خاصة في الخطاب العربي المعاصر ترتبط أساساً بالمشروع العروبي، وكذلك الأمر فإن مصطلح وطنية مرتبط بالمشروع القطري المحدود بالعربية، والذي يرتبط بالوطن كمكان بدل الشعب كجماعة.

(٣) علي حرب «أطروحات في الفكرة والهوية» أبواب (١٩٩٥: عدد ٦)، ص٤٩.

(٤) يشترك في هذا الموقف بعض المؤرخين القوميين العرب وبعض المؤرخين الصهاينة. المؤرخ الإسرائيلي بن تصيون نتنياهو (والد بنيامين نتنياهو) أعلن مراراً أن لا وجود برأيه لأي شيء يمكن أن يسمى شعباً فلسطينياً. «لا أظن أن العرب الذين يسمون أنفسهم فلسطينيين يحق لهم المطالبة بدولة. من الواضح في نظري أن لا وجود لشعب فلسطيني.» (القدس ١٨/٩/١٩٩٨).

(٥) المؤرخة الفلسطينية بيان نويهض الحوت تبنت مثل هذا الموقف في محاضرة لها في مسرح بيروت في نيسان ١٩٩٨. وهي أيضاً تطرح ما يشابه ذلك في كتابها فلسطين: القضية ـ الشعب ـ الحضارة (بيروت: دار الاستقلال للدراسات والنشر، ١٩٩١).

(٦) لم أتمكن من أن أجد نصاً مكتوباً لهذا الاقتباس، لذا أورده استناداً إلى ما رواه لي المؤرخ ايلان بابي خلال لقاء في رام الله في شباط ١٩٩٨.

(٧) الاتجاه السائد في دراسة تطور الهوية الفلسطينية هو تأريخ تطور المؤسسة السياسية الفلسطينية.

مثال على ذلك كتاب المؤرخ الفلسطيني ماهر الشريف: البحث عن كيان: دراسة في الفكر السياسي الفلسطيني ١٩٠٨ ـ ١٩٩٣ (نيقوسيا: مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي، ١٩٩٥).

(8) Rashid Khalidi. Palestinian Identity: The Construction of Modern National Consciousness (New York: Columbia Unversity Press, 1997).

(٩) وثائق المقاومة الفلسطينية العربية ضد الاحتلال البريطاني والصهيونية ١٩١٨ ـ ١٩٣٩ (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية)، ٣.

(١٠) وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩١٨ ـ ١٩٣٩ (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية).

(١١) أنظر بشارة دوماني. إعادة اكتشاف فلسطين: أهالي جبل نابلس ١٧٠٠ ـ ١٩٠٠ (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٨).

(١٢) أنظر ألكسندر شولش. تحولات جذرية في فلسطين ١٨٥٦ ـ ١٨٨٢: دراسات حول التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، ترجمة كامل العسلي (عمان: الجامعة الأردنية، ١٩٨٨).

(١٣) في رسالة الدكتوراه التي كتبتها حول القدس في المخيلة الأوروبية في القرن التاسع عشر، أشرت لمثل هذه الإمكانية بشكل عابر. لمزيد من المعلومات راجع:

Issam Nassar. Imagining Jerusalem in the Nineteenth - Century: A Study in Religious and Colonial Imagination. (Doctoral Dissertation, Illinois State University, 1997).

(١٤) رشيد الخالدي يخصص فصلاً من كتابه حول الهوية الفلسطينية لهذه المسألة. أنظر:

Rashid Khalidi. “Competing and Overlapping Loyalties in Ottoman Jerusalem” in Palestinian Identity, 63-88.

(١٥) أنظر نص القرار في كتاب بيان نويهض الحوت. القيادات السياسية (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية)، ٩٦.

(١٦) هذه الحركة التي أسسها عدد من النشطاء الفلسطينيين أمثال جورج حبش وهاني الهندي في أول الخمسينات برؤية تقول بأن تحرير فلسطين لن يتم بدون تحقيق الوحدة العربية (أنظر مقابلة حبش مع محمود سويد الصادرة في كتاب ضمن سلسلة مرجعيات فلسطينية رقم ٣ (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٨)، ١١.

(١٧) كتب نصار: «نحن اخوانكم الفلسطينيين، نشاطركم في كل مواقفكم أنواع المحن، فلماذا لا تشاطروننا، على الأقل، بشيء من الشعور بالمصائب التي تنصب على رؤوسنا.. وعلى بلادنا.» الكرمل، حيفا ١٢/٦/١٩١٤. مقتبس في كتاب علي محافظة. الفكر السياسي في فلسطين ص. ٢٣ – ٢٤.

(١٨) علي محافظة. الفكر السياسي في فلسطين: من نهاية الحكم العثماني حتى نهاية الانتداب البريطاني ١٩١٨ ـ ١٩٤٨ (عمّان: مركز الكتب الأردني، ١٩٨٩)، ٢٢٥.

(19) Homi K. Bhabha. “Dissemination” in The Location of Culture (London: Routledge, 1994),

139 - 140.

(٢٠) موسى البديري. مجلة الدراسات الفلسطينية (شتاء ١٩٩٥: عدد ٢١)، ١٨.

(21) Musa al - Budieri. Reflections on al-Nakba, Journal of Palestine Studies. No. 109 (Autumn 1998): 39. The original text reads:

Growing up in "Jordanian" Jerusalem in the 1950s, what strikes me most today is the total absence of Palestine and Palestinian things in my worldview, both as a child and as an adolescent. True, on my daily trip to school I walked in the shadow of the wall built by the Jordanian army presumably to protect people from Israeli sniper fire (....) east Jerusalem and the West Bank, as the name implied, were no longer Palestine but Jordan; "Palestine" was over there, beyond the flimsy wall that started at Damascus Gate and stretched all the way to Shaykh Jarrah.